

ملخص:

إن الشاعر المعاصر، وفي إطار بحثه المستمر عن أدوات جديدة يتمكن عبرها من تجسيد دواخله ورؤاه وأحلامه، لجأ إلى استخدام تقنية الرمز، ومن الشعراء الذين أدركوا ما للرمز من طاقات إيحائية غير محدودة تستوعب في أتونها الغامض والخارق واللامعقول، نجد: الشاعر (عثمان لوصيف)، خاصة بعد ولوجه عالم المتصوفة، وعليه أصبح بحاجة للغة صوفية تترقى عن مدارج اللغة العادية، ورمز يحملان هذا الزخم الروحي، والرؤية الباطنية. ومن بين الرموز الموظفة في ثنايا نصوصه نجد: (رمز المرأة)، إذ تعد من أهم الرموز عنده، حيث يكشف شعره عن تصور خاص تتحول بموجبه إلى رمز مفعم بالطاقات الدلالية والإيجاءات المفتوحة، ولئن كان هذا الرمز يتكرر وروده في نصوص الشعراء إلى أن لشاعرنا رؤية خاصة تختلف في هندسة تشكيلها عن البقية، ونحن في هذا المقال سنركز على كيفية تخيل عثمان لوصيف لهذا الرمز وهندسته لصوره ومحملاته ليجسد من خلاله تجربته؟ وما أضفاه هذا التشكيل الرمزي من خصوصية جمالية على نصوص المدونة من خلال صورة المرأة؟ الكلمات المفتاحية: الرمز؛ ديوان (براءة)؛ عثمان لوصيف؛ التصوف؛ المرأة؛ الشعر؛ تشكيل؛ شعرية.

Summary in English:

The contemporary poet, in the context of his continuous search for new tools through which he can embody his insights, visions and dreams, has resorted to the use of the symbol technique, and among the poets who realized the infinite suggestive energies that accommodate in its mysterious, supernatural and irrational furnaces, we find: The poet (Othman Lusif) Especially after the face of the Sufis world, and on this basis he became in need of a mystical language that was elevated from the runways of the ordinary language, and a symbol carrying this spiritual momentum and esoteric vision. Among the symbols employed in the folds of his texts, we find: (the symbol of the woman), as it is one of the most important symbols in him, as his poetry reveals a special conception whereby it becomes a symbol filled with semantic energies and open revelations, and while this symbol is repeated in the texts of poets that our poet has a vision Especially it differs in the geometry of its formation from the rest, and we in this article will focus on how Osman imagined a runner of this symbol and engineered his images and his handles to embody his experience? And what did this symbolic formation add to the aesthetic privacy of the texts of the blog through the image of women ?

Key words: symbol, Diwan (Baraa), Othman Lusif, Sufism, women, poetry, formation, poetic.

رمز المرأة بين شعرية التوظيف**وهندسة التشكيل الصوفي في****شعر عثمان لوصيف****-ديوان (براءة) أنموذجا-**

The symbol of women
between the poetic of use and
the engineering of Sufi
formation in the poetry of
Othman Lusif - Diwan
(Baraa) as an example

موسى بن حداد**جامعة باتنة****Ahmedzaglale@gmail.com**

مقدمة :

"براءة" من خلال صورة المرأة ؟ وكيف هندس دلالاته المختلفة في أسطره الشعرية؟ وكيف انعكس ذلك جمالياً وسمائياً على هذا الديوان؟ هذا ما سنحاول معالجته ضمن هذا المقال الموجز.

الرمز المفهوم والتوظيف في الشعر العربي:

يعد الرمز أحد وجوه التعبير الأدبي، فهو من أهم أدوات التعبير بالصورة، فالمبدع يلجأ إلى الصورة الرمزية بتوجيه من تجربته الشعورية المطردة التي لا يمكن التعبير عنها إلا بهذا النمط من الصور لا غيرها، " فالمشاعر الإنسانية والأشياء الجماد يعتمد بعضها على بعض وتتناسب معا، على نحو تعجز عن إيضاحه لنا أفكارنا التقليدية المتعلقة بالسبب والنتيجة"¹.

وقد استخدم الشعراء المعاصرون الرمز بنوعيه: العام والخاص؛ وقد تحول ذلك إلى حتمية في تجاربهم التي يحوونها، حيث أضفوا على الرمز تلك الخصوصية التي تميز مواقفهم الشعورية حتى يكونوا منها هدفاً للمتلقي، وبذلك يجد الشاعر في الرمز الخاص مجالا واسعا للتعبير بحرية وفرصة لاختياره الرمز الذاتي ممثلا بذلك تجربته بشكل خاص، " فهو الطابع الذي يحمل

يميل ارتباط توظيف الرمز في العصر الحديث بالشعر من خلال سعي الشاعر الدائم لتوليد أدوات وآليات تعبيرية فنية، يجسد وفقها مكنوناته، ويخرج عن طريقها رؤاه ورؤياته إلى حيز الكينونة. إذا أصبح ما بين يديه من تقنيات لا يكفي ليسد حاجاته المتزايدة وذائقته الفنية، ولم يجد بدا سوى أن يستلهم من ثقافته وتراثه بعضا منها فكان الحل في الرمز الذي وجد فيه ضالته إذ وفر له الكثير من المساحات التعبيرية والحلول لقولبة الدوال وتشكيل المدلولات، بل وابتكار معاني جديدة، وراح الشعراء يكتشفون ما تتمتع به هذه التقنية من قدرات وطاقات وإيجاءات وجماليات تحيل على تجاربهم، وتشي بأبعادها المختلفة، فاغتنت الصورة الشعرية بقيم جديدة، وإمكانات أكثر ثراءً ومرونة وطواعية للتعبير والإبداع، كما أن الشعراء لم يكتفوا بذلك وحسب بل حاولوا المزج بين التصوف والرمز لخلقوا بذلك تجارب أكثر شمولية واتساعاً وحوارية مستفيدين من ما يحويه هذا المخزون الهائل من قيم وطاقات ودلالات متعددة، وهو ما أدى بهم إلى استلهم الكثير من القيم والأحوال الصوفية وعكسها في أشعارهم ورموزهم. ولعل من بين هذه الرموز التي وظفوها (رمز المرأة) التي تشير إلى الحب الإلهي، ولعل من هؤلاء الذين استعانوا بهذا المكون الصوفي نجد: الشاعر الصوفي "عثمان لوصيف"، فكيف شكل الشاعر هذا الرمز الصوفي في ديوانه

¹ - إدمون ويلسون، دراسة في الأدب الرمزي، تر: جيرا إبراهيم جيرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1979م، ص12.

الحقيقي وغير الحقيقي وحلقة الاتصال بين الدوافع المختلفة².

إذ الشاعر المعاصر أنشأ لنفسه معجماً خاصاً، وشعرية تقدم المشهد الجديد على نحو مغاير، ممارساً بذلك حرياته التي استقاها من تجارب الشعر العالمية، والتي أفضت إلى غموض النص من جهة، وانفتاح البناء النصي من جهة أخرى³.

لما أدرك الشاعر المعاصر ما للكلمة من أهمية بالغة في نقل التجارب والأحاسيس بعدما دخل دائرة التجريب الشعري لما هو ممكن ومتاح أمامه من أدوات تعبيرية يلتقطها، راح يلون أشعاره من خلالها بألوان من التعابير والصور، وينسج بخياله فضاءً رحباً من الحرية الشخصية للذات الشاعرة وأخرى للقارئ المتلقي للنص.

ظهرت بوادر الاتجاه إلى الرمز في الشعر العربي الحديث منذ أواخر العقد الثالث من القرن العشرين، متأثرين بالشعر الرمزي الفرنسي، لتهيئاً لهذه التجربة النقاد العرب، ويضعوا لها المعايير الجمالية النظرية، وقيسوا عليها الأعمال الفنية⁴، إذن، قامت الرمزية العربية بالاعتماد على منطلقات الشعر الغربي الحديث،

ومن أمثال الشعراء الذين تأثروا بهم (ملارميه Mallarmé وآلان بو Allan poe)⁵، وارتقت تلك

المحاولات بفعل تعددها وازدياد عدد معتنقيها والمبدعين ضمن منوالها إلى مستوى المذهب والمدرسة والاتجاه حسب تصنيفات النقاد والدارسين، وبرزت معالمها أكثر خلال النصف الثاني من القرن العشرين عبر تجارب إنسانية تعددت منطلقاتها ومدلولاتها وغاياتها.

علاقة الشعر بالصوفية:

للشعر ارتباط وثيق بالتصوف منذ القديم، ولنا في أشهر المتصوفة أمثلة عن ذلك، إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون الشاعر متصوفاً لجرد أنه عبر عن تجربة وفق رؤية صوفية، كما لا يستبعد أن يكون المتصوف شاعراً⁶ "فالصوفي شاعر سواء نظم القول أو نثر، فأداة الإدراك عنده هي نفسها أداة الإدراك عند الشاعر، والمعين الذي يستقي منه هو نفسه المعين الذي منه يستقي الشاعر، والوسيلة التشبيهية التي يستخدمها في أداء ما يؤديه هي نفسها وسيلة الشاعر"⁷.

- إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، دار الثقافة العربية، الجزائر، د ط، 2007م، ص 341.⁵

⁶ - إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر (1945-1995)، الأمين للنشر والتوزيع، دمياط، مصر، 1996م، ص 24.

⁷ - زكي نجيب محمود، مع الشعراء، القاهرة، دار الشروق، ط 6، 1983م، ص 57.

- عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة، بيروت، ط 4، د ت، ص 75.²

- ينظر، محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، دار العودة، بيروت، ط 1، 1979م، ص 43.³

⁴ - ينظر، نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص 458.

ولئن كان كلاهما يعبران عن رؤية وتجربة ما قد تبدو للغير غامضة، إلا أنها تجسد رؤية عميقة وفهم وفق منظور مختلف للواقع والوجود والذات والجماعة، وفي مختلف الأطر والعلاقات؛ لأن اللغة العادية لم تعد قادرة على استيعاب حمولات هذا الزخم الذي يمور في دواخل كليهما، حيث يلجأان معاً إلى اللغة الانزياحية المتشحة بأردية الغموض والإيحاء والتميز؛ لأنها في نظرها هي القادرة على حمل ما يحملانهما، ولذلك لجأ كل منهما إلى ابتكار رموز شخصية ترتقي بل وتتجاوز تلك النمطية الجاهزة والتي صارت معانيها مستهلكة لدرجة لم يعد بمقدورها الاستمرار أكثر في بسط ألقها الجمالي ونظامها الدلالي، وربما نجد بعض العزاء في هذا القول الذي يرى أن: "الشاعر يمتح من الباطن ومثله الصوفي ولذلك كانت لغتهما متباينة للغة الناس كافة، هي لغة الخصوص لا لغة العموم، لغة الحجاز والرمز لا لغة التصريح والوضوح، يلجأ إليها المتصوفة إما لأن لغة العموم لا تفني بالتعبير عن معانيهم ومواجهتهم، وإما ظناً بما يقولون على من سواهم، والصوفي بلغته الرمزية الغامضة لا يخرج كل ما بداخله؛ لأن ما يريد أن يعرف حقيقة التجربة الصوفية فعليه أن "يدوقها" لا أن يقرأها فحسب"⁸.

⁸ - المرجع السابق، ص 24.

ومثلما يستند التصوف على "عنصري الذوق والكشف لا على العقل والمنطق، فكذلك الشعر لا يستند إلى الفلسفة"⁹. فالرمز الصوفي بسماته "لا ينطبق تماماً على مفهوم الرمز، بمعناه المعاصر، ذلك أن ما يفترض فيه من مواضعه أو قرينة يبعده عن تلك الإيحائية التلقائية التي يتسم بها الرمز الفني"¹⁰، لهذا كان فهم كلامهم شعراً كان أم نثراً يحتاج إلى شيء من التأني والتأمل في دلالات الألفاظ وتراكيب الجمل... وإلا بقي القارئ خارج حدود التأويل المفترض في هذا النوع من النصوص التي يكون فيها المؤلف والقارئ من نوعية خاصة، إذ فهم مغالق النص لا يُتاح لكل قارئ مهما كان مستوى هذا القارئ من الثقافة والوعي الكبيرين بشروط القراءة الفعالة.

لذا، فإن غنى التجربة الصوفية يكمن "في جوانبها السلوكية والإبداعية، كان من بين أهم الأسباب التي أوجدت في شعرنا العربي المعاصر صيغة الامتزاج بين تجربة التصوف وتجربة الشعر"¹¹، هذا الامتزاج الذي يراه بعضهم طبيعياً بحكم تشابه المقصد والأدوات والرؤية، ومن لغة الواقع إلى لغة الحلم السيريالية، حيث الإحساس بالجمال والاستغراق في التحليلات

⁹ - المرجع نفسه، ص 25.

¹⁰ - محمد أحمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1984م، ص 164 - 165.

¹¹ - محمد بنعمارة، الصوفية في الشعر المغربي المعاصر، المفاهيم والتجليات، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط 2000/1، ص 52.

بوصفه نوعاً من اللاوعي¹³ لهذا استغل شعراؤنا ما تحمله التجارب الصوفية في أتونها من معان ودلالات، وحاولوا تضمينها في نصوصهم الشعرية إما بحالتها الأولى أو بتغيير لبوسها الدلالي، بما يتوافق والسياق والتجربة الشعرية والشعرية، إذ إن مقاييس توظيف الرمز الصوفي لا تخرج عن مقاييس توظيف الرمز الأسطوري أو الديني أو التاريخي، حيث الكل يعمل على استفزاز مخيلة القارئ بما كان يملكه من ثقافة عن تلك الشخصيات أو الأحداث.

إن التجربة الصوفية هي تجربة لغوية في إبداعها، إذ إننا نرى من خلال النصوص الشعرية الصوفية، أن أصحابها حاولوا التمرد على اللغة العادية لما وجدوا أنها غير قادرة على استيعاب كل المعاني الروحية التي يريدون أن يعبروا عنها، فكان الرمز منقذهم من هذا المأزق الذي يقف في وجه تجربتهم الصوفية في أن تتجسد ككائن لغوي من نوع خاص، بعدما "وجدوا أن طبيعة اللغة العادية غير قادرة على الإيفاء بكل المعاني التي تعيق بها تجربتهم الفريدة.. ولذا نراهم جميعاً تقريباً يتوسلون بالرموز... التي شكل استعمالهم لها نوعاً من التواضع على معانيها، مما قرب رموزهم من الرموز الاصطلاحية أكثر مما قربها من الرموز الإنشائية، على الرغم من أنها رموز شعرية في

الروحانية من أجل أن تترفع ذات الشاعر/ المتصوف عن حدود الواقع. وعليه حاول بعض الشعراء المعاصرين التعبير عن بعض ما يتعلق بتجارهم عبر توظيفهم لأصوات صوفية، فالعلاقة بين الشعري والصوفية وثيقة، وتتضح هذه العلاقة أكثر في نزوع كل من الشاعر المعاصر والصوفي إلى محاولة الانحلال في الوجود وعناصره.

وهذا التقاطع بين -الصوفية والشعرية- يوضحها واحد من الشعراء المعاصرين من خلاله قوله أن التجربة الشعرية تقترب من التجربة الصوفية في محاولة كل منهما الإمساك بتلابيب الحقيقة والوصول إلى جوهر الأشياء بغض النظر عن ظواهرها، إذن، التشابه في واقع الأمر كبير جداً¹².

إن العودة إلى التجربة الصوفية ومحاولة اكتشاف مكنوناتها وجواهرها الخفية دليل على أن الشاعر يحاول أن يتمرد على هذا الجسد المنتمي إلى عالم المادي الممتد، ويعرج ويسمو بروحه إلى السماء، حيث الطهارة والصفاء والنقاء.

هذه النظرة للتجربة الشعرية التي تماس مع التجربة الصوفية أو الروحانية هي "نوع من العودة إلى اللاشعور الجمعي حيث يتجاوز الفرد، إلى ذاكرة الإنسانية وأساطيرها إلى الماضي

¹³ - أدونيس، الصوفية والسريالية، دار الساقي، بيروت، ط 3، 2006م، ص 156.

¹² - ينظر صلاح عبد الصبور، شاعر الكلمة مجلة فصول نقلا عن محمد بنعمارة الصوفية في الشعر المغربي المعاصر، ص 53-54.

غالبيتها"¹⁴. لكن هذا لا ينفي أن النصوص الصوفية بالرغم من اصطلاحية رموزها-هي نصوص بها من الشعرية ما يفوق أحيانا النصوص الشعرية العادية التي يلجأ فيها أصحابها إلى الرموز الإنشائية، خاصة عندما ندرك كيف تتم عملية الخلق اللغوي في النص الصوفي، حيث يفرغون اللفظة من دلالتها الأولى ويشحنونها بدلالاتهم الخاصة كلفظة الخمر، المرأة.. وغيرها. فالنص الصوفي تركيب شعري مميز، وقلة من تمكنوا من مقاليد، وأنجحوا لنا نصوصًا تطفح بالشعرية والصوفية العرفانية.

ولئن كان الشاعر يتشابه مع الصوفي في التجربة والرؤية إلا أنه يختلف معه في العديد من النقاط ويتشابه معه في بعض منها، ولكل منهما وسائله وطرقه لتجسيد عالمه الرؤيوي الشعوري، ونحن لا نتفق مع هذا الدارس في كل ما يقول، إذ يرى أن الشاعر يتشابه مع الصوفي " في الوسيلة ويتحد معه في الهدف، فكلاهما لا يعول على المنطق، ويضع العقل بعد القلب في الترتيب، وكلاهما يهدف إلى تكوين رؤية مختلفة للعالم، وبما أن وسيلتهما مختلفة عن وسيلة العلم ووسيلة الفلسفة فهي رؤية مختلفة حتماً، لا أقول رؤية مناقضة لرؤية العلم والفلسفة فكثير من العلماء هم من المتصوفة بحق، ولكن يجب أن نعترف بالفرق بين الطريقتين فالمعرفة الصوفية

معرفة تجريبية لا عقلية منطقية، إنها معرفة الله بطريقة فريدة"¹⁵.

وإذا كانت رغبة المتصوف أو غايته هي التوحد في الذات الإلهية هذا لا يعني أن الشاعر أيضاً له الهدف نفسه بحكم التشابه بينهما في الوسيلة والهدف مثلما يقول هذا الدارس، فلكل منهما غاية ما يستعين بوسائل معينة تمكنه من مظهرتها وتحليلتها.

ولئن كان لطاقة الخيال دور هام وفعال في كلا التجريبتين الصوفية والشعرية، إلا أنه يختلف في درجة حضوره في كليهما، وحتى في طريقة عمله وأسلوب نمذجته لهما. إلا أن إحدى هذه الوسائل الهامة التي يلجأ كل من الشاعر والمتصوف إلى التصوير والوصف عن طريقها هي: توظيف الرمز والاستفادة من طاقاته الجمالية والإيحائية المكثفة.

هذا ويتراوح الإرث الصوفي العالمي بين النثر والشعر وغيرهما من أشكال الإبداع والتعبير والعرض، ولنا فيما وصل إلينا من نماذج ثرة بقيت محفوظة تتناقل على مر العصور ويضرب بها المثل خير مثال، كما خلف لنا المتصوفة المسلمون تراثاً صوفيًا ضخماً يطفح بطاقات الرمز والخيال، ويعدد المراحل والأحوال التي حققها ووصل إليها هؤلاء عبر تجاربهم الممتدة والمتنوعة وكل

¹⁵ - إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر (1945-1995)، ص 25.

¹⁴ - غسان غنيم، الرمز في الشعر الفلسطيني الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 1، 1973م، ص 23-24.

على الحب الإلهي فالعاشق الصوفي يجعل من الحب حركة
انفتاح نحو كل مظاهر الكون والعالم والتجليات الإلهية¹⁶.

إن حب المرأة عند الشاعر الصوفي بمثابة منفذ أو معبر
لحب أكبر إنه صورة مصغرة لصورة أكبر هي الحب الإلهي
المطلق والمنزه من كل شائبة، ذلك أن " المرأة في الغزل الصوفي
والحب الإلهي هي رمز الذات الإلهية، وقضية الحب الإلهي -
كما نعرف - هي محور الشعر الصوفي"¹⁷.
الرمز الصوفي في شعر "عثمان لوصيف":

شهدت الساحة الشعرية الجزائرية تغيرات كثيرة وهامة خاصة
بعد توظيف التجربة الصوفية على أيدي مجموعة من الشعراء
الصوفيين منهم: الشاعر الجزائري الكبير "عثمان لوصيف" الذي
لا يقدم في نصوصه تجربة لغوية فحسب، وإنما يقدم لنا تجربة
روحية تستمد مناخها من التصوف الإسلامي¹⁸، ولو نظرنا إلى
الآثار الشعرية لشاعرنا لرأينا أن معظم المواضيع التي تصدى لها
الشاعر هي غالباً مستقاة من واقع بيئته ومحيطه الذي يحيا فيه،
ومما لا يمكن استبعاد تأثيره على شعر الشاعر هو أن بيئته

جهدهم وغايتهم الارتقاء إلى أعلى درجات الحب الإلهي والفناء
والتجلي في فيوض الذات الإلهية كما يزعمون.

رمز المرأة:

لعب رمز المرأة بكل تجلياته دوراً مهماً في تمثيلات الشعراء،
حيث ورد ذكرها في كثير من الأشعار تصريحاً وتلميحاً، إذ
حملت بدلالات مكثفة ومباشرة، وبزخم جمالي قديماً وحديثاً،
ويعد "عثمان لوصيف" من هؤلاء الشعراء الذين وظفوا بكثرة
هذه المفردة في مختلف أشعاره بل وتفنن في تنميط وتشكيل
صورها وتطعيمها بسمات خاصة نابعة من رؤية وتصور ومفهوم
الشاعر لهذه المصطلح. ومن بين الدواوين التي حوت ذكر هذه
اللفظة ديوان "براءة" حيث نلمس من البداية ما يشير إليها من
خلال مفتتح النص/الديوان "براءة" الذي يرمز إلى المرأة حيث
هذه الصفة تحيل في عمقها أكثر للمرأة في طبيعتها الطفولية،
والمتلقي سيصطدم من الوهلة الأولى باستفزاز هذا العنوان الذي
ينفتح على أكثر من مستوى وبعد في الفهم والتحليل والتأويل،
ونجد مثل هذه المفردات ترد في مضامين الشعراء ومن بينهم
الصوفيين، ومن خلال رمز المرأة "راح الشعراء يتأملون الجمال
الأبدي المطلق، ليجعلوا من حب المرأة إطاراً فنياً للدلالة

¹⁶ - ينظر: دهماني نبيلة، شعبان صبرينة، الرؤية الصوفية وأثرها في التشكيل
الشعري الجزائري الحديث، ديوان الأمير عبد القادر نموذجاً، مذكرة تخرج لنيل
شهادة الماستر، إشراف: أ/ فاتح علاق، جامعة عبد الرحمان ميرة، 2011م -
2012م، ص 22.

¹⁷ - إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي
المعاصر (1945-1995)، ص 56.

<http://www.rwafee.com/up/uploads/4a36c31151.jpg> .

¹⁸ - (<http://www.rwafee.com/up>)

الكونية التي يصدرها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور،
تفكيراً ينم عن عمق شعوره وإحساسه¹⁹.

يمثل الرمز في شعر "عثمان لوصيف" أحد أهم الآليات التي
تطعم تجربته بالغنى الدلالي، والدينامية، والجمال. وهو أحد
الأدوات الرئيسة في بناء الصورة الشعرية لديه، إذ يعد مكوناً
رئيساً في التركيب الصوري لديه يطعم ثانياً قصائده بطاقاته
الفنية وزخه الدرامي.

يمثل رمز المرأة الأداة التي يجاوز بها الشاعر المتصوف
مستواها الإنساني إلى مستوى أعلى وأسمى يفوق التصور الذي
يرى فيها نوع من التجلي لجمال الذات الإلهية، فالشاعر ينشد
سمات تتميز بها المرأة من قبيل: الصفاء، والطهر والعفاف،
والجمال. ويمكن القول: إن هذا الرمز لا يرد كثير بشكل مباشر
بل يأتي يحيل إليه ويدل عليه.

كما نجد نصوصاً كثيرة لشعراء الجيل الجديد الذين
حاولوا ملامسة العرفانية بكل تظاهراتها إما على الصعيد اللغوي
أو على المستوى الفكري أو السلوكي، فهذا الشاعر "عثمان
لوصيف" دائم الحضور في النص التراثي الصوفي "لا من حيث
المعجم اللغوي وحسب ولكن من حيث المعجم الإيحائي
والرمزي، بحيث يسعى إلى تقمص وجدانات الصوفية في أسمى

كانت صحراوية بالدرجة الأولى من حيث الطبيعة والمجتمع،
وشعره يمثل صورة عن الصراع الذي يحيط به وما يفرضه هذا
المجتمع عليه لتحقيق ذاته، وبيئته زادت من قدرته على الخلق
والكشف وإنماء صوره ومعانيه، وقيمتها تكمن في الصور التي
تمده بها للتعبير عن انفعالاته، وتضفي على تجربته الشعرية سحراً
وجمالاً.

أما اللغة الشعرية التي تعد من أهم أدوات
الإبداع الشعري لها دور في إبراز قيمة النصوص الشعرية، لذلك
على الشاعر أن يولي عناية خاصة لاختيار الألفاظ، وأن يتحرى
الجميل منها والمناسب لا الكلمات الجوفاء، فلغة الشاعر تعبر
عن عمق تجربته الذاتية لأن الشعر موجه للجماعة مما يستلزم
على الشاعر أن يبذل جهده في سبيل إيصال ونقل تجربته
 للقارئ، لذلك نجد "عثمان لوصيف" قد هيا لتجربته الشعرية
أرضية مناسبة لتلقي القارئ لها ونقله إلى أماكن رحبة للأدب،
وتحفيز ذهنه للتلقي الإيجابي، ونسج تفاصيلها بالعديد من
الوسائل التعبيرية أو الفنية. ويعد الرمز من أبرز هذه الوسائل،
فهو الأداة التعبيرية التي تعكس تجربة "عثمان لوصيف" الشعرية،
وبهذه الوسيلة الجمالية استطاع الشاعر نقل ما يجول بداخله من
الصراعات والشحنات العاطفية التي قد تعجز اللغة البسيطة عن
إيصالها، وهذا ما جاء على لسان "محمد غنيمي" هلال في
تعريفه للتجربة الشعرية على أنها "الصورة الكاملة النفسية أو

19- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، 1973م،

الغزل الصوفي الذي يتقصد الخالق سبحانه، ويحضر هذا التحليق عند الشاعر "عثمان لوصيف" في عالم الروح حيث النقاء والحب العفيف، وحيث المرأة تحيل إلى المحبة الإلهية، ومن خلال تشكيلاها ينتقل الشاعر حالاً على حال ومن مقام إلى آخر.

"صاعداً في خيوط الضياء
نحو عينيك ... أمشي على درجات الندى
والأغاني عصافير خضراء ترتف حولي
وتمسح بالريش حزني المعتق.."21

في هذا المقطع يتحدث الشاعر عن معارجه الروحي في فيوض من نور ترتقي به نحو عيني المحبوبة اللتان أدهشتاه بجمالهما إلى الحد الذي يدفع الشاعر إلى ابتكار تركيب فريد من الدلالات والدوال ليحيل إلى نوع من الترميز الذي تقوم أطراف معادلته على التكثيف والضغط والتميز. فهو يمشي على درجات من ندى، والأغاني الصادحة عصافير خضراء تطير حوله، وتمسح عطقاً على الشاعر حزنه، وتؤنسه في وحدته وأوجاعه.

يستدعي الشاعر رموزاً عديدة في ديوانه ويشكلنها حسب رؤيته ورؤياه، من قبيل: الرموز التراثية التي يوظفها وهي تحيل دوماً على المرأة (رابعة العدوية وبشينة، لبنى، سعاد)، ليعيد ذلك

تجليات هذه الشهادة للباحث "عبد القادر فيدوح"، نجد لها صدى في ديوان "براءة" حيث العرفانية "تتجلى من خلال لغة القصيدة المملوءة بالمصطلحات الصوفية، إذ يقول في نص التجلي:

"وأنا العاشق المتصوف
عانقت كل الممارات
كل الـبروق،
وكل المـرايا
أفـتش عـن منتهـا
أفـتش عـن سـدرتي...
ما ارتوى القلب يوماً ولا هدأت مهجتي
ثم ... حـين رجعت إلى الأرض
أحتضن الطـين واليـاسمين
تجليـت في أفقـي
واكتشفت بأن سـمائي

تختفي في عيون النساء!!"20

هذا النوع من الشعر يشير إلى ذلك الشعور بالتحليق في فضاء الروح ومعارجها في فيوض من خيوط نورانية تحيل على عظمة الخالق تعالى، ومن خلال هذه الأمثلة يقف المتلقي على الفرق بين الغزل الحسي الذي يتقصد المحبوب في ذاته وبين

21- المصدر السابق، ص 47.

20- عثمان لوصيف، براءة، دار هومة، الجزائر، د.ط.د. 1997م، ص 48.

التصور المنعقد زمنًا طويلاً حول الحب والغزل وذيوها كقصص تتناقلها الألسنة، فمثلاً: "رابعة العدوية" أحد رموز التصوف القديم والتي يضرب بها المثل ضمن منظور الحب الإلهي والتجلي، حيث يقول:

"تذكرت نجداً، بثينة، لبني.

سعاد وعفراء.

رابعة العدوية والسهر وردي، لكن سحرك

أقوى"²²

والشاعر هنا ينتقل بالحب إلى مرتبة أسمى ودلالة أعمق وأقوى، حيث وبعد ذكره لكل هذه النماذج وكأنه في البداية عقد مقارنة لكنه رأى أنها في اجتماعها لا ترقى لمستوى سحر هذه المحبوبة التي تعلق بها، وهو هنا يقصد "وهران" التي شخصنها هنا وصورها كمرأة يتغنى بهيامها. والشاعر لا يتوقف عند هذا الحد بل يواصل حديثه عن حبه اللامنتهي واللامحدود، وهو دوماً يربطه بحب المرأة، يقول مرة أخرى:

"قاهر حسنك الأزلي

وقاهرة أنت"²³.

الشاعر هنا، يصف حسن محبوبته بالأزلي الذي لا يحول ولا يزول، فهو ممتد منذ القدم ومستمر إلى حيث لا نهاية،

ثم ينتقل إلى المحبوبة في ذاتها ليصفها بأنها تقهر كل من حولها ولا أحد يصمد أمام سلطتها، وهو بهذا يكون انتقل من القهر الجزئي المرتبط بالحسن إلى القهر الكلي المنبثق منها في كليتها. ويقول أيضاً:

"أنت .. يا امرأة طلعت أمس"²⁴.

يخاطب بقوله أنت وكأنها ماثلة أمامه وهو يوجه لها خطابه، ثم يتبع ذلك بسكوت مفاجئ وموجز، ثم يستأنف من جديد وصفه لها موظفاً أداة النداء للقريب لأنه يحس أنه أقرب إليه بل هي ساكنة في كيانه وتشغل ذاته.

وتتوزع أنماط التصوير الذاتي لرمز المرأة ككيان وكرمز وإحاء تجسد رؤية الشاعر عثمان الصوفية، وتتفرع إلى صور محسوسة تتوزع وفق تقسيم الصور إلى سمعية وبصرية ولمسية وإلى صور معنوية مجردة ومشخصة أيضاً وبالتالي هي تتوزع وتأخذ هياكل صورية حوارية متشظية تعكس مدى غنى المعجم الصوفي والتصوير الرمزي في هذا الديوان وغيره من دواوين الشاعر التي ترسم جميع معالم التجربة الشعرية المفتوحة على كل الرؤى والتصورات والتجارب، وتعكس كذلك خصوصية الرؤية الشاعرية لدى شاعرنا. وفيما يلي سنعرض بعض هذه الأمثلة التصويرية التي ذكرناها قبلاً، ونبدأها مع التصوير الرمزي

²² - المصدر نفسه ، ص 55.

²³ - المصدر نفسه، ص 57.

²⁴ - المصدر السابق، ص 57.

البصري، حيث يقول الشاعر في مقطع من قصيدة "النحلة والغبار":

"ورأت فيما يرى النبي"²⁵.

ويقول أيضاً:

"رأت رفارف وأنوارا

جداول وأزهارا

ورأت ما رأت." ²⁶.

تتحول المحبوبة في السطر الشعري الأول كائنًا آخر وترتقي إلى مصاف الأنبياء، حيث إن ما تراه يوافق رؤية الأنبياء، فهي رؤيا حق لا مرء فيها ولا جدال حولها، ولكن أي شيء رأت في منامها، بينما تحكي بقية الأسطر فحوى هذه الرؤية وكأنها رأت القيامة، لتنبثق مفارقة كبرى عن مفارقة صغرى وندخل في لعبة الانشطار المفارقاتي والإلغاز الدلالي المكثف، وهو ما انعكس على كامل المقطع بالإيجاب، ووسمه يبهارج الجمال، والزخم الدينامي، والتصعيد الدرامي.

ثم يواصل رواية تفاصيل هذه الرؤية من خلال ذكره لبعض من ملامح هذه المغامرة الروحية في معارج الروحية ومفاصل السيربالية، فهي رأت في هذا الفردوس رفارفا وأنوارا وأزهارا وجداولا، فالصور البصرية تتوالى في التخاطر والتوارد وفق صياغة

تسلسلية لتنبأ عن كمياء تخيلية من نوع خاص، ورؤية شعرية مفعمة مليئة بالزخم الصوفي والعمق الروحي والفيض الشعوري المتختم باللقطات الصورية المندغمة في شكل عقد ومصفوفات تأخذ منحى متعرجا صعودًا تارة ونزولًا تارة أخرى.

كما يقول في قصيدة "وهران":

"ومرآة عينيك عبر الرذاذ تشف"²⁷.

ويقول أيضًا في سطر آخر: "ولعينيك لون الآباد وذهولات

النوافير." ²⁸

تتحول عينا هذه المحبوبة ألوانًا وأشكالًا فهي مرة ينبعث لمعانها عبر مرآة عاكسة من خلال رذاذ، وتارة تأخذ عينها لون الآباد والذهولات المنعكسة من النوافير، فنحن هنا، أمام تخيل من نوع خاص يعكس سحر هذا التوظيف الصوري الرمزي الذي يخبأ في مضانه صورًا بصرية واستعارية وتخييلية ووصفية وكأننا أمام لوحة فسيفسائية من الألوان والتقانات والصور.

وفيما يلي نعرض أنماطًا أخرى من التصوير الرمزي الصوفي الذي انعكست من خلاله المرأة وتجسدت في أشكال مختلفة، وهو ما انعكس على الديوان في مجمله، وطبعه بهالة من

²⁷- عثمان لوصيف، المصدر السابق، ص 49.

²⁸- عثمان لوصيف، المصدر نفسه، ص 34.

²⁵- المصدر نفسه، ص 24.

²⁶- المصدر نفسه، ص 24.

الجمال والهيبة والفاعلية والمسحة التخيلية والتشكيل الجوّاري والتقنيّاتي.

الصورة السمعية:

يقول في مقطع من قصيدة "وهران":

"تنغيمه الخطوات الرشيقه فوق الرصيف"²⁹.

آه!

يا امرأة تشح بالضوء

من عصر الشفق الأرجواني

من كسكك جمالاً تغوص الكواكب فيه

ومن فض بين يديك مزاميره القدسية؟!

أنت أميرة هذا الجنون المغامر

أنت إلهة هذا الغوى

أنت سيّدة الشعراء

وسيدة الأنبياء"³¹.

تتحول المدينة من مكان إلى كائن أنثوي يتغزل به الشاعر، ويثني عليه ويعدد مزاياه. فهذا هو هنا يصور وقع خطوات هذه المرأة وهي تمشي فوق الرصيف على أنها تنغيم صوتية عذبة الصوت دقيقة اللحن، إن الشاعر من خلال هذا السطر الشعري استطاع أن يصور بدقة رجوع صدى الألمان التي تتردد عبر المدينة وأزقتها وكأنها فتاة جميلة تحس لوقع مشيتها صدىً موسيقيًا يأخذ بالألباب، وبالتالي، يمكننا القول: إن الشاعر وفق في اختياره للكلمات التي عكست هذه الصورة السمعية ببراعة ودقة فائقة تنم عن حس شعري روحي عميق.

الصورة الضوئية:

ويقول أيضًا: "ومشينا يدًا في يد نزرع الرمل عشقًا وعتقًا

مشينا.. وكانت فراشة قلبي ترف

ومرأة عينيك عبر الرذاذ تشف

وكان الأصيل يطوقنا بالأغاني"³⁰.

نجد أيضًا الضمير الذي يعود على المرأة المخاطبة من لدن الشاعر، وهنا يأتي توظيفه لهذا الضمير توظيفًا تداوليًا بحيث لا يفهم معناه إلا من خلال العودة إلى سياق وروده، يقول الشاعر:

نلاحظ أن الشاعر في هذا المقطع يعمل على شكلنة صور عديدة تعكس تجلّي هذه المرأة وفق هيات وأشكال مختلفة، مستعينًا بحسه الصوفي العميق، وما هذه المرأة في حقيقة الأمر سوى وطنه، والشاعر يستقي مواد صوره من عناصر مختلفة حسية ومعنوية واقعية وخارقة للواقع، فهو يبدأ مقطعه مبررًا آهاته متبعًا إياها بالنداء للقريب؛ لأن الحبيبة أقرب ما تكون إليه من غيرها، ثم ينتقل عن طريق التخيل إلى أفق آخر

²⁹ - عثمان لوصيف، المصدر نفسه، ص 55

³⁰ - عثمان لوصيف، براءة، ص 49.

³¹ - المصدر نفسه، ص 48.

خارق للمألوف حيث يصور هذه المرأة وهي متشحة برداء من ضوء في هيئة عجيبة، ثم يدخل في توصيفات عابرة للواقع ساجحة في فيوض الخيال، مخاطباً إياها مسائلاً عن سر هذا الجمال الخارق الذي تنوء حتى الكواكب من فنتته، لينتقل من التصوير البصري إلى السمعي من خلال استمراره في التساؤل عن ماهية هذا الصوت العجيب الذي تصدره وكأنه من عذوبته مزامير قدسية، ليقفز بالعرض إلى مشهد آخر أكثر غوصاً في الأعماق وأكثر حساسية وتأثير ودهشة لينصب هذه المرأة أميرة على كل ما يقود إلى الجنون، وفي الأسطر الثلاثة الأخيرة يعدد مراتب وصور تجلي هذه المحبوبة فهي تارة إلهة الغواية ومرة سيدة الشعراء تلهم من تشاء وأخيراً سيدة الأنبياء وعندها مستودع الإلهام.

ويقول في مقطع آخر من قصيدة "وهران":

"وحين رأيتك أيقنت أن الحبيبة أنت

وأن الآلهة أنت..."³².

"ناديت من خارج الكون: وهران... وهران!

فابتسمت.. لوحت... غمرتني.. ومدت إلي يداً

ثم سرنا معاً وانسللنا إلى البحر."³³.

جعل الشاعر من "وهران" المكان امرأة يناديها ولكن ليس من داخل حدود وجود الحبيبة بل خارج حدود الزمان والمكان معاً، إنه يناديها من خارج الكون مقيماً خيط التواصل الذي يجمع بين الأبعاد والمواقع المألوفة والمجهولة في رؤية صوفية خالصة فتجيبه ببسمة، ثم بالتلويح ومد اليد ليسيراً معاً في رحلة تجمعهما إلى البحر، ويكون الشاعر قد جمع بين شيئين يختلفان في الطبيعة والشكل والمنشأ في كيان واحد في صورة عجيبة فريدة.

ويضيف أيضاً في مقطع آخر من قصيدة "وهران":

"لا زلت أذكر أي إلتقيتك في الحلم ذات مساء

وأنا اعتقنا الغواية والبرق

ثم ارتحلنا على زورق ملكي

من الورد واللازورد

ورحنا نشق نبيذ السماوات"³⁴.

تتنوع الضمائر وتعدد الذوات من ذات الشاعر والمحبوبة وهما معا في صيغة الجمع (نحن)، حيث يصور لنا الشاعر غمار تجربة قام بها والمحبوبة، ولكنها مغامرة تفيض بالدهشة والتعجب والمفارقة واللامعقولة، فالشاعر يسافر في متاهات الحلم وعوالمه الخفية والغامضة وسراييه المتناهية، معتقاً والحبيبة قيود الغواية والبرق مرتحلين في زورق عجيب المنشأ

³² - المصدر السابق، ص 53.

³³ - المصدر نفسه، ص 59.

³⁴ - المصدر نفسه، ص 58.

خارق الوصف من ورد ولازورد وهو هنا، توظيف مجازي يحيل
إلى شيء آخر سره قابع وراء أقنعة هذا التركيب الخرافي، يشقاني
السموات في معراجهما الروحي وهما يتحسسان نشوة السكر
الروحية تسري فيهما في توحد عجيب فريد يبعث في النفس
الإلهام والإحساس بحقيقة تلك الرحلة التي طافا بها السموات
من أقصاها إلى أقصاها.

الخاتمة:

في الأخير يمكننا القول: إن "عثمان لوصيف" وعبر امتداد
تجاربه وتواليها في هذا المجال، وبعده واحدًا من المتصوفة الذين
أدركوا بفعل مطالعاتهم ومعايشاتهم الكثير من الحقائق، التي
استطاع من خلالها أن ينمذج رمز المرأة الذي يقود مباشرة إلى
الحب الإلهي كما في عرف كل المتصوفة في صور رمزية وأنماط
تصويرية مختلفة موعلة في الكثافة والإلغاز وذات خصوصية
فريدة من حيث التركيب والتكوين والأسلوب واللغة وعلى
مستوى الأدوات والتقانات، حيث جسد المرأة في تشكيلات
مختلفة حسية ومعنوية وتشخيصية ومجازية وبوليفية فهي تارة
المحبة وتارة ثانية الإلهة وثالثة سيدة الشعراء ورابعة سيدة
الأنبياء وخامسة المرأة الوطن... وغيرها من الصور التي حيرنا
الشاعر بها من حيث طرق ابتكارها وصيغ تجليها مازجًا بين
الشعر والتصوف وغيره من العناصر ليشكل لب هذا الرمز الهام
وعصارتة، وهو ما انعكس على شعره عامة وتصويره الرمزي لهذا